٦٤٨
٢٠١٦/٤١٠٠

أفكار غيَّرت العالم

١٧

أم كلثوم
المعجزة

بقلم :
د. منال القاضى

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب أطفال وناشئة

سلسلة أفكار غيرت العالم

تصميم الغلاف:

محمد جمال

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

القاضى، منال.

أم كلثوم المعجزة/ بقلم: منال القاضى.

القاهرة: دار المعارف، 2016.

20 ص، 19.5 سم (أفكار غيرت العالم، 17)

تدمك 8 8302 02 977 978

1 – المطربون والمطربات المصريون.

2 – أم كلثوم، فاطمة إبراهيم البلتاجى، 1898 – 1975.

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 927.849

رقم الإيداع: 2465/ 2016

رقم أمر التشغيل: 29/ 2015/ 7

رقم الكونجرس: 5 – 840052 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

من هى أم كلثوم؟

- وُلدتْ فى قريةِ طماى الزَّهايرة عام ١٨٩٨م.
- كان لوجـودِ «أم كلثوم» فى القرن العشـرين أثـرُه الكبيرُ على فـنِّ الغناءِ، فقد غيرت نظرةَ المجتمعِ للفنِّ، ففى العشـرينات رفضتْ «هدى شـعراوى» أن تضعَ صورتَها فى روزاليوسف كى لا تكونَ جنبًا إلى جنبٍ مع صور الفنانات، وظهرتْ «أم كلثوم» فكانتْ نموذجًا للفنانةِ المحترمةِ ذاتِ الرِّسالة، فتغيرتْ نظرةُ المجتمعِ إليها وأُطلقَ عليها لقبُ «الست» كنايةً عن الاحترام.
- غيرتْ بأدائِها المميزِ وذكائهـا فى اختيارِ الكلماتِ والألحانِ من شكلِ الأغنيةِ المصريَّة والعربيةِ وارتقتْ بالغناءِ.
- كان صوتُهـا مُوَّحِـدًا للعربِ، وبرزَ بشـكلٍ كبيرٍ فى المواقف الوطنيَّة المختلفةِ، فقد كانت تشعرُ بمسئوليتها تجاهَ الوطنِ.
- تُوفيت فى فبراير عام ١٩٧٥م.

من أقوال أم كلثوم المأثورة:

- أحـبُّ رؤيـةَ الهلالِ فـى بدايتِه لأننى أحبُّ رؤيةَ كل شـىءٍ له مستقبلٌ.

وقفتِ الْفتاةُ الصغيرةُ على الأريكةِ، شعرتْ بالخجلِ، إنَّه جمعٌ كبيرٌ أكبرُ ممَّا تَصوَّرتْ، اغمضتْ عينيها وبدأتْ فى الإنشادِ، كان أبوها الشيخ «إبراهيم» قد وعدَها بطبقِ مُهلَّبية كبيرٍ، غنَّت ما تعلمتْه من مدائحَ وتواشيحَ، ثمَّ توقفتْ.

تَمْتمَ السَّميعة «ما شَاء اللهُ... ما شَاء اللهُ».

تذكَّرتْ «أمُّ كلثوم» هذا المشهدَ كما تذكَّرت همسًا بين أمِّها وأبيها.

أبوها يقولُ:

«دَخْلى حوالى عشرونَ قرشًا، وأجرُ الكُتَّاب أربعةُ قروشٍ».

وأمها تُصرُّ:

«لا بدَّ أن تذهبَ «أم كلثوم» إلى الكُتَّاب وتتعلمَ».

يجادلُ الأب:

«انظرى حولك لا أحدَ يهمُّه تعليمُ الأولاد، فما بال «أم كلثوم»، ماذا تفعلُ بالتعليم، أليس مصيرَها الزواجُ والسترةُ فى بيتِ رجلٍ».

نظرتِ الْأم البسيطةُ بعيدًا وقالت كأنَّها تقرأُ قدرًا:

«أم كلثوم غيرُ كلِّ البنات».

وافقَ الشِّيخ «إبراهيمُ» كأنَّ ما قالته زوجتُه نبوءةً.

كان هذا منذُ سنواتٍ بعيدةٍ، فنحنُ الآن عام ١٩٤٩م، «أمُّ كلثوم» على متن سفينةٍ مُتَّجهةٍ إلى أمريكا للعلاجِ حيثُ تلقَّتْ دعوةً من مستشفى البحريَّةَ الأمريكيةِ.. تنهَّدتْ:

«لقد مرَّتْ سنواتٌ كثيرةٌ ولكنَّ أيامَ الطُّفولةِ لا تُعوَّضُ».

كانتْ تَتَحسَّسُ رقَبتَها مِنْ آنٍ إلى آخر، حيثُ تُوجدُ الْغدَّةُ الدَّرقيَّةُ وتُتَمْتِمُ: «ماذا أصابَكِ؟ هل يكونُ مرضى بدايةَ النِّهايةِ؟ هل تَحتمِلُ الحياةَ بلا مغنًى؟».

إنَّها بحاجةٍ إلى تلكَ الذِّكرياتِ فى هذهِ اللحظةِ الْحاسِمةِ.

أحداثٌ كثيرةٌ مرَّتْ بها، صفَّقَ لها جمهورٌ لا حصر لَه، ولكنَّ لا شيءَ يُشْبِهُ ذكرياتِ الطُّفولةِ.

انْقبضَ صدرُها ورفعتْ عَيْنيْها إلى السَّماءِ:

«يا رب».

كانتِ الْباخرةُ تشقُّ البحرَ الأزرقَ اللانهائيَّ.

كانتْ خائفةً تُريدُ أن تَسْتمدَ القوَّةَ من طفولتِها البراءة وجَذْوةٌ داخلها تُضيءُ لها الطَّريقَ.

سنواتُ التَّعبِ والشَّقاوة، حينَ كانتْ تَتَنقَّلُ من قَرْيَةٍ إلى أخرى، على ظهرِ حِمارٍ، أو داخلَ قِطارٍ، أو سيْرًا على قدميْها.

كانتْ تتذكرُ كلَّ شيءٍ، تزاحمتْ صُورٌ كَثيرةٌ أمامَها، ذهابُها إلى كُتَّابِ القريةِ مع أخيها «خالدٍ»، وتسكُّعُها أمامَ دوَّار العمدةِ كى تستمعَ إلى أسطواناتِ الشَّيخ «أبى العلا».

اتسعتِ ابْتسامةُ «أمِّ كُلثوم» ونسيتْ ألمَها، فقد تذكَّرتْ لقاءها بالشَّيخ «أبى العلا» أثناءَ انتظارِها القطارَ مع أبيها على محطَّةِ السنبلاوين.

لم تصدِّقْ، وأبوها يشيرُ تجاهَه. لم تلتقطْ ملامحَه، رأتْه كطيفٍ، أرادتْ أن تتأكَّد أنَّه حقيقةٌ لا أوهامُها اللذيذةُ. أمسكتْ بِقُفْطانِهِ وجذبتْهُ فى طُفولةٍ:

«أحقًا أنت الشَّيخُ «أبو العلا»؟».

دَنْدنتْ أمامَه فشعرَ الشَّيخُ «أبو العلا» أنَّه أمامَ مَوْهبةٍ لن تتكرَّرَ.

سألَ، فأجابتْ: «نسكنُ قريبًا من هنا».

قرَّرَ الشيخُ «أبو العلا» أن يتبَعَهم، وصوتُ «أمِّ كلثوم» يرنُّ فى أُذنيْه.

أمَّا هى فكانتْ لا تصدِّقُ أنَّه بالْفعلِ معَهم داخلَ بيتِهم البسيطِ.

احْتفلوا به، غنَّتْ «أم كلثوم» كما لمْ تغن من قبلُ. أطربتْه وشعرَ الشَّيخُ «أبو العلا» أنَّ عليهِ واجبًا، فـ «أمُّ كلثوم» موهبةٌ ولكن لا بدَّ من صَقْلِها، والغناءُ فى القرى والنُّجوعِ مرحلةٌ يجبُ أن تَنْتَهىَ.

«يجبُ أن تسافرَ «أُمُّ كلثوم» إلى القاهرةِ».

ارتبـكَ والدُ «أم كلثوم» مؤذنُ الْقريةِ، حقًّا لقد غنتْ فى بيوتِ عُمَـدٍ وباشـواتٍ. ولكنَّ القاهـرَة بحرٌ لا أوَّلَ لـه ولا آخر. ولكن الصَّغيرةَ تهلِّلُ: «الْقاهرة.. الْقاهرة.. لِمَ لا؟».

تتعرَّفُ على الشَّيخِ «زكريا أحمد» عندَ قدومِهِ إلى السنبلاوين لإحياءِ ليالى رمضانَ.

فيؤكِّدُ ما قالَه الشَّيخُ «أبو العلا».

تُحيى بعضَ الحفلاتِ فى القاهرةِ قبلَ أن تستقرَّ هناكَ.

***

كانتِ الْقاهرةُ خارجةً من فورانٍ كبيرٍ، بعدَ ثورةِ ١٩١٩م.

كانـتْ مصرُ تُولدُ من جديدٍ، وتقفُ عنـدَ مفترقِ طُرُقٍ، تَطْوى صفحةً وتبدأُ أخرى، نجومٌ تبزغُ وأخْرى تنطفئُ.

لقد كانتْ «أُمُّ كلثوم» ابنةَ اللَّحظةِ المناسـبةِ. وكان الْقَدرُ يضعُ أمامَها أسماء موهوبةً، تريدُ التَّحققَ بطريقةٍ مختلفةٍ، «القصبجى» و«السنباطى» والشاعرَ الشابَ «أحمد رامى» وآخرين.

كانـتْ «أُمُّ كلثوم» موهبةً فذَّةً، ولكن ما قيمةُ الموهبةِ بلا عقلٍ ومُناخٍ صحىٍّ يحتضنُها.

لم تكن مهنة الفنِّ تحْظى بالاحْترامِ المطلوبِ عندَ قدومِها إلى الْقاهرةِ، فقد رفضتْ «هدى شعراوى» المُناضلةُ الكُبرى أن تُنْشرَ صورتُها فى روزاليوسف، كىْ لا تتجاورَ مع صورِ الفنَّاناتِ.

ولكنَّ «أمَّ كلثوم» كانتْ صِنْفا مُختلفًا من الفنَّاناتِ، اتسَّمت بالالتزامِ والْخلقِ الرَّفيعِ، والابْتعادِ عنِ الابْتذالِ.

هكذا هِىَ، نموذجٌ غَيرُ مأْلوفٍ فى الوسطِ الفنىِّ آنذاكَ، ولكنَّها حفرتْ لنفسِها طريقًا وصارتْ مثلاً وقدوةً.

قبلَ رُكوبِها الْباخرةَ، احتشدَ أصدقاؤها لتوديعِها. هَلْ كانوا خائفينَ؟

قالَ لها «رامى» كلمةً رقيقةً، كلماتُه تُلْهِمُها، قال إنَّه ينتظرُ أغنيتَها الْقادمةَ، وأنَّها غيَّرتْ شكلَ الغناءِ فى مِصْرَ والعالمِ العربىِّ. ما الَّذى كان يلْمعُ فى عينيْه؟ دموعٌ؟

تذكَّرت لقاءَها الأوَّل بهِ فى إحدى الحفلاتِ عام ١٩٢٤م، كانَ عائدًا من فرنسا وكانتْ لا تزالُ ترتدى القُفطانَ والْعِقالَ.

إنَّها تدينُ لكلماتهِ الرَّقيقة، كانتْ تؤمنُ أن الكلمةَ أهمُ عناصر الأغنيةِ الجيدةِ، ثم بعد ذلك يأتى التلحينُ والأداءُ.

كان «أحمد رامى» يعملُ فى دار الْكتبِ، وكان حريصًا أن يُحصِّنَ موهبةَ «أمِّ كلثوم» بالثَّقافةِ، فكانَ يَحْملُ إليها كلَّ يوم اثنين كتابًا جديدًا من دارِ الْكتبِ، يشرحُ لَها ما اسْتعصى منه، ويضعُ يدها على جماليَّاتِه.

أمَّا «القصبجى» الَّذى لحَّنَ لها الكثيرَ من الأغنياتِ مثل «رق الحبيب»، «يا طير يا عايش أسير»، «العيد السعيد»، «ليلة يا زمان» فاكتفى بتودِيعها بنظراتٍ صامتةٍ، كان يكتمُ خوفَه وقلقَه عليها، و«السنباطى» الَّذى غنَّتْ له ألحانًا كثيرةً أشهرُها «على بلد المحبوب ودينى»، وعرفتْه فى طفولَتِها وكان لا يقلُّ عنها شخصيةً وكبرياء، فشدَّ على يديْها وتمنَّى لها العودةَ بصحةٍ وسلامةٍ.

قالتْ فى رقَّةٍ:

«لقد نجحتْ أُغنياتى وستبْقى بفضلِ ألحانِكم الجميلة».

والتفتتْ إلى «رامى»:

«وبفضلِ أشعارِكَ يا رامى».

يبتسمونَ رغمَ الموقفِ المؤْلم. وفى داخل كلٍّ منهم فكرةٌ واحدةٌ، أن «أمَّ كلثوم» ليستْ مجردَ صوتٍ مُعْجِزٍ، لقد ألهمتْهم،

فأخرجوا ما عندَهم وأبدعـوا، أحيانًا كانت تطلبُ تعديلاتٍ على الكلمةِ أو اللحنِ، وكانوا يستجيبونَ، فهى موهبةٌ جدَّتْ صاحبتُها وتعبتْ من أجلِ صقْلِها.

فحيـنَ تُبْدى رأيًا وتطلبُ من الملحنِ والشَّـاعر تغييـرًا، فهى تتكلمُ عن درايةٍ وفهم، وتقصدُ النَّجاحَ للعملِ الفنىِّ، فقد كانتْ أوَّل مطـربةٍ تَـدْرسُ النَّـوتةَ الموسيقيةَ، وأصرَّتْ على تعلُّم الفرنسيَّةِ، وحين تقرَّرَ سَفرُها إلى أمريكا للعلاجِ شرعتْ فى تعلُّم الإنجليزيَّةِ.

كان الوقـتُ مسـاءً ذلكَ اليـوم، حين صعـدتْ «أمُّ كلثوم» إلى ظهرِ الباخرةِ، واسـتغرقتْ فى تأمُّلِ النُّجوم، تذكَّرتِ الصِّراعاتِ بينها وبين مطرباتِ عصرها، «منيرةِ المهديَّة» سـلطَانةِ الطَّربِ و«فتحيَّة أحمد» مطربةِ القُطْرين.

لم يَسـتمرا، كانـت تَنْقصهمـا الثَّقافةُ والرؤيـةُ، منذ عاميْنِ حضـرتْ حفلًا بالأوبرا لـ «منيـرةِ المهديَّة»، الَّتى قررتِ الْعودةَ بعدَ انْقطاعٍ.

بكـتْ مـن أجلِها، لقد فقـد صوتُهـا حلاوتَـه، وكانَ الزَّمنُ قاسيًا، فتركَ بصماتِه واضحةً على هيْئتها. أمَّا هى فشارفتْ على الْخمسـين وما زالتْ فى قمةِ تألُّقِها. كثيرونَ وقفوا إلى جوارِها،

الشَّيخ «زكريا أحمد» كان يُهدى إليها ألحانَه حينَ كانت لا تملكُ القدرةَ على شرائِها، و«أحمد رامى» أهداها كلماتِه.

كانـتْ تريدُ أن تُغيِّرَ صورةَ الفنانِ، فهوَ يرتقى بالأذواقِ ولديْه رسـالةٌ. انْفتحَ عقلُها وثقَّفت نفسَها بنفسِها، قرأتْ روائعَ الكتبِ والأشْعارِ، دربتْ نفسَها على تذوّقِ الفنِّ الرَّاقى، وكرَّست حياتَها لرسـالتِها الفنيَّة. واستطاعتْ على مدارِ السَّـنواتِ أن تَخْلُقَ ذوقًا جديدًا، يحْتفى بالكلمةِ الْمبدعةِ واللَّحنِ الشَّجىِّ، ويعافُ الابْتذالِ.

تتوالـى النَّجاحاتُ ويتُّم افْتتاحُ الإذاعةِ المصريَّة عامَ ١٩٣٤م، وتتعاقـدُ الإذاعةُ مع «أمِّ كلثوم» كى تقدَّمُ حفلةً فى الخميسِ الأوَّل من كلِّ شـهرٍ، وكانتْ هذه الحفلاتُ تُقَدَّمُ من مسـرح الأزبكيَّة، وكانت تمثلُ بهجةً للمصريينَ فى كلِّ مكانٍ، وينتظرونَها بشغفٍ، وكانتْ «أم كلثوم» تستعدُ بالكلمةِ الحُلوةِ واللَّحنِ الجميلِ، والأداءِ الَّذى يُظْهِرُ موهبتَها ويؤكِّد أنَّها قيثارة مِصْرَ.

انْسـابت دموعُ «أمُّ كلثوم»، وتذكَّرتْ مصرَ، دندنتْ مَقْطعًا من أغنيتها «على بلـد المحبوب ودينى» التى غنَّتها فى فيلم «وداد» الذى كان من إنتاج ستوديو مصرَ الَّذى أسَّسه رائدُ الاقتصادِ الوطنىِّ «محمد طلعت حرب».

وقد أُقيم ستوديو مِصرَ في الْهرم وجهِّزه «طلعت حرب» بأحْدثِ الأجهزةِ، بعد أن قامَ بزيارةِ ستوديوهاتٍ عالميَّة وأسندَ الإدارةَ لـ «أحمد سالم».

وكانَ إنتاجُ فيلم تقومُ ببطولتِه «أمُّ كلثوم»، يمثِّلُ قيمةً كبيرةً. و«وداد» هو باكورةُ إنتاج ستوديو مصر كتبَ قصته «أحمد رامي» وقام بإعداد السيناريو «أحمد بدرخان» وكانَ من المفترضِ أن يتولَّى إخراجَه «أحمد بدرخان»، ولكنَّه لم يُكْملْ مهمَّته كمخرجٍ، وواصل الإخراجَ المخرجُ الألمانيُّ «كرامب».

«أمُّ كلثوم» المطربةُ الشَّهيرةُ تمثِّلُ أيضًا ولكنَّها تضعُ شروطًا تناسِبُ شخصيَتها، فتختارُ بنفسِها مُلحِّنى الفيلمِ وكلماتِ الأغنياتِ وتُصِّرُ أن تلتزمَ الرِّوايةَ بالتَّقاليد الشَّرقيةِ.

تدخلُ قلوبَ المصريينَ بموْهبتها وتُغِّيرُ مفهومَهم عن دنيا الفنِّ. وتصنعُ من نفسِها نموذجًا حيًّا لكلِّ ما هو راقٍ، فينادونها بـ«الست أم كلثوم» و«كوكب الشرق» تقديرًا لها وإيمانًا برسالتها.

***

انهالتْ آلافُ البرقيَّاتِ وباقاتِ الوردِ والمكالماتِ الهاتفيَّة على المستشفى الَّذى تُعالج فيه «أمُّ كلثوم»، مصريونَ وعربٌ توافدوا كلَّ لحظةٍ إلى هناك، كانَ العربُ يحسونَ بانتمائِها إليهم

مثلُهم مثلُ المصريينَ، ساعدتْ أغانيها على الارتقاءِ بالكلمةِ وجعلتْ للغةِ العربيَّةِ مذاقًا، وأبرزتْ ما فيها من حلاوةٍ.

هناك هَمْسٌ يدوُر حولَها.. تستفسرُ فيكونُ الصَّمتُ.

وأخيرا قال أحدُهم: «لا بدَّ من عمليَّةٍ».

تسألُ: «هل الأمرُ خطيرٌ؟».

يصمتونَ..

«متى تُجرى هذهِ العمليةُ؟»

يَصْمتونَ.

لا يوجد طبيبٌ عربيٌّ أو أجنبيٌّ يقبلُ المجازفةَ والاقترابَ منها بمشرطِهِ.

إنَّها جوهرةٌ شرقيَّة. وصوتُها معجزةٌ إلهيَّة.

لا يوجدُ طبيبٌ مهما علا مقامُه، لدْيه جرأةُ إجراءِ عمليَّةٍ لمعبودةِ الشَّرقِ.

يقولونَ: «العمليةُ قد يكونَ لها مضاعفاتٌ».

تفهمُ «أمُّ كلثوم» وتصمتُ.

يقولونَ: «سنجربُ علاجاتٍ غيرَ الجراحةِ».

تحسَّنتْ حالةُ «أمِّ كلثوم» وتقرَّر عودتَها إلى أرضِ الْوطنِ.

تعـمُّ الفرحةُ مصرَ والوطنَ العربيَّ، ويتفنَّنُ الشُّـعراءُ فى نَظْمِ قصائد مُرَحِّبةٍ بالسيدةِ العظيمةِ.

كانتْ «أمُّ كلثوم» تترقَّبُ لحظـةَ الوصولِ، وبدْت لها الباخرةُ «اسبيريا» بطيئةً.

وسمعتْ «أمُّ كلثوم» أصواتًا تغنِّى (حمد الله على السلامة).

حاولتِ اسْتطلاعَ ما يحدثُ، تَمْتمتْ: «ما هذا؟»

مئاتُ الزَّوارقِ واللانشاتِ كانت تحيطُ بالباخرةِ «اسبيريا».

الكلُّ يهلِّلُ ويلوِّح لها بالأعلامِ الملونةِ. غناءٌ، مُوسيقى، ألوانٌ تشبهُ قوسَ قُزح.

بكت «أمُّ كلثوم»، قائلةً: «الحمدُ لله أن منحنىَ الله هذا الحبَّ».

رسـتِ الْباخرةُ أخيرًا فى ميناءِ الإسكندريَّة وشقَّت «أمُّ كلثوم» طريقَها بصعوبةٍ. لوَّحتْ للجميعِ فرحًا وعرفانًا.

سافرتْ إلى القاهرةِ، وحضرتِ احْتفالا أُعِدَّ خصيصًا لها، أنشدَ فيه الأديبُ الكبيرُ «عباس محمود العقاد» قصيدةً، ليرحبَ بها.

كان «عباس محمود العقاد» من أشدِّ المعجبينَ بفن «أمِّ كلثوم»، وكان يعتبرُها شخصيةً عصاميَّةً مثلَه، ثقَّفتْ نفسَها وغيَّرت صورةَ الفنانات فى القرنِ العشرين.

وكان فى الاحتفالِ شخصياتٌ أخرى هامةٌ.

تأثرتْ «أم كلثوم» كثيرًا بهذا الحبِّ وسالتْ دموعُها.

***

قامتْ ثورةُ يوليو عام ١٩٥٢م، واسْتبشرت «أمُّ كلثوم» خيرًا.

ولكن صدرتْ أوامرُ بعدم إذاعةِ أغانى «أمِّ كلثوم» فى الإذاعةِ.

تساءلتْ «أمُّ كلثوم» بينَها وبينَ نفسِها:

«لماذا؟ هل نَسوْا أنَّنى فلاحةٌ من قرية طماى الزهايرة؟».

وقبل أن يتسلَّلَ الحزنُ إلى قلبها، بلَغَها أنَّ الزَّعيم «جمال عبد الناصر» تدخَّل بنفسِه لإيقافِ هذا القرارِ.

استبشرتْ «أمُّ كلثوم» بهذا الضَّابطِ الشَّاب الَّذى يعرفُ أقدارَ النَّاس ويقدِّر قيمةَ الفنِ وواصلتْ رحلَةَ العطاءِ.

كانتْ «أمُّ كلثوم» حتَّى هذه اللَّحظة وحيدةً، لم تمر بتجربةِ زواجٍ واحدةٍ، وإن كانتْ أعلنتْ خِطْبَتها مرةً إلى الملحنِ «محمود الشريف».

وكان إلى جوارِها آنذاكَ طبيبٌ مُعجَبٌ بفنِّها، وحينَ اقتربَ منها، بُهِرَ بشخصيتِها وذكائِها.

ولكنَّه امتلكَ الجرأةَ والشَّجاعةَ، وكان شديدَ الثقةِ بالنَّفسِ، فتقدَّم إليها طالبًا الزواجَ.

عُقِدَ قرانُها فى سبتمبر ١٩٥٤م على الدكتور «حسن الحفناوى». ولم تعدْ كوكبُ الشَّرقِ وحيدةً.

***

واصلتْ «أمُّ كلثوم» تقديمَ حفلتِها فى الخميس الأوَّل من كلِّ شهرٍ، كانَ مؤشِّرُ الرَّاديو يُضْبَطُ فى هذا الموعدِ فى مصرَ وخارجِها فى سائرِ الأقطارِ العربيةِ.

وكانَ الْمحظوظونَ يتمكنونَ من حجزِ تذاكرِ لحضورِ الحفلِ بأنْفسِهم. فيُهرولونَ فى الموعدِ الْمُحدَّدِ، فوقَ باخرةٍ أو داخلَ طائرةٍ أو حافلةٍ. منهم مَنْ كان ثريًّا ومنهم مَنْ كان يدَّخرُ واثقًا أن حفل «السِّت» متعةٌ للأذنِ وللرُّوحِ، ويستحق الادِّخارَ من أجلِه.

لقد صار لـ «أمِّ كلثوم» مكانةٌ كبيرةٌ فى قلبِ كلِّ عربىٍّ، وكانتْ تدركُ أن الحفاظَ عليْها مسئوليةٌ كبيرةٌ.

انتقلتْ «أمُّ كلثوم» من نجاحٍ إلى آخر. وكانتْ مصرُ تنتقلُ من نَصْرٍ إلى نَصْرٍ، فقد قامَ الرَّئيسُ «جمال عبد الناصر» بتأميمِ قناةِ السِّويس، فعادتِ الْقناةُ إلى أصحابِها الشَّرعيين.

فرحتْ «أمُّ كلثوم» ككلِّ مصرىٍّ بما حدثَ، لكن الغربَ كان غاضبًا من تلك الخطوةِ، وواجهتْ مصرُ عدوانًا غاشمًا عام ١٩٥٦م.

فقد قامتْ فرنسا وإنجلترا وإسرائيل بغزوِ مصرَ.

شعرتْ «أُمُّ كلثوم» بواجبِ تجاهَ الوطنِ.

وذاتَ ليلةٍ جاءها الملحنُ «كمال الطويل» بأغنية (والله زمان يا سلاحى) من تأليفِ الشَّاعر «صلاح جاهين».

شنَّتِ الدُّولُ الغازيةُ غارةً.

قالتْ فى تحدٍّ للغزاةِ: «لنحضرْ الشُّموعَ ونواصل الْعمل».

تذوَّقت «أُمُّ كلثوم» الكلماتِ، وأعجبتْها.

وقامَ «كمال الطويل» بتحفيظِها اللَّحنَ على ضوءِ الشموع.

انتهتِ الْغارةُ، ودَّعتْه: «سنلْتقى فى الإذاعة لتسجيلِ الأَغنية».

كانتْ هناك مخاطرُ كبيرةٌ وتهديداتٌ بضربِ الإذاعةِ ولكنَّ «أمَّ كلثوم» كانتْ تؤمنُ بدورها العظيمِ كفنَّانةٍ فى هذا الموقفِ الْعصيبِ.

سجلتِ الأغنيةَ الَّتى تردَّدت فى كلِّ أنحاءِ مصرَ وبعثتِ الْحماس فى الجنودِ والمتطوعينَ المصريينَ.

كانتِ الْقصصُ تتوالى عن بطولاتِ وشجاعةِ المصريينَ فى مقاومةِ الْعدوِّ، واضطرتِ الدُّولُ الغازيةُ إلى الانْسحابِ.

* * *

استمرَّ تألُّقُ «أمِّ كلثوم» فى فترة السِّتينيات، وكانَ لقاءُ السحابِ عام ١٩٦٤م بينَها وبينَ موسيقارِ الأجيالِ محمد عبد الوهاب فى أغنيةِ «أنت عمرى»، وكانتْ جوهرةً بين أغانيها، هى بصوتِها السَّاحرِ وهو بنغماتِه العذبةِ.

واستمرَّ تغريدُ «أم كلثوم» الذَّكى يسمو بالقلوبِ والأرواحِ، ويُوحِّدُ فنُّها بين العربِ. حتَّى كانتِ النَّكسة عام ١٩٦٧م. وأصابَ الوطنَ جرحٌ عميقٌ، وتساقطتِ الدُّموعُ من كلِّ عينٍ مصريَّةٍ.

ولكن من قالَ إن الأزماتِ شرٌّ مُطْلَقٌ. فالنَّكسةُ التى أصابتْنا عام ١٩٦٧م، كشفتْ لنا أبعادًا جديدةً فى شخصيَّةِ «أمِّ كلثوم».

***

استبدَّ الحزنُ بـ «أمِّ كلثوم» كما استبدَّ بالمصريين.

ترفعُ وجهَها وتهمسُ لنفسِها وهى تتطلَّعُ للفضاءِ الواسعِ:

«لا وقتَ للحزنِ، لنْ نداريَ جراحَنا أو نخجلَ منها، سنحولُها إلى نوافذَ يتسلَّلُ منها الضَّوءُ ويعبرُ إلى أرواحِنا، فأنا مصريَّةٌ، ابنةُ أرضٍ طيبةٍ وسليلةِ حضارةٍ عظيمةٍ، ما أكثر النَّوائبَ الَّتى مرَّت على مصرَ، ولكنَّها بقيت رغمَ ذلكَ، قويةً، مُحِبَّةً للحريَّةِ والحياةِ، هذا وقتُ العملِ».

سافرتْ فى نوفمبر عام ١٩٦٧م إلى باريس وغنَّت على مسرح أوليمبيا.

وأرسلتْ قبلَ مغادرتِها رسالةً إلى الرَّئيس الفرنسى «شارل ديجول» قائلةً:

«قبلَ أن أغادرَ فرنسا العظيمةَ أُحيى فيكَ وقوفَك مع العدالةِ وفى جانبِ السَّلام».

ليبعثَ لها بدورِه قائلًا:

«لقد لمستِ بصوتِكِ أحاسيسَ قلبى وقلوبِ الفرنسيينَ جميعًا».

تنقَّلتْ «أمُّ كلثوم» من بلدٍ إلى آخر، تُغنِّى وتُطْرِبُ وتَجمعُ المالَ بالعملةِ الصَّعبةِ لدعمِ المجهودِ الحربىِّ. وكُرِّمتْ فى العديدِ من دولِ الْعالم.

وعرفتْ مَصرُ لـ «أمّ كلثوم» قَدْرَها، فمنحتْها جوازَ سفرٍ دبلوماسيًّا عام ١٩٦٨م، وهى المرةُ الأولى الَّتى يحصلُ فيها فنانٌ مصرىٌّ على مثلِ هذا التَّكريم.

كما نالتْ جائزةَ الدولةِ التقديريَّةِ فى العام نفسِه، وتبرَّعت بقيمةِ الجائزةِ لصندوقِ معاشاتِ الْفنانين.

واصلتْ «أم كلثوم» غناءَها فى الداخلِ والخارجِ، لجمعِ المالِ للمجهودِ الحربىِّ.

لقد حوَّلتْ صوتَها إلى سلاحٍ فاعلٍ ونور جعل المصريينَ يتغلبونَ على يأسِهم ويتأكَّدونَ أن النصرَ قادمٌ لا محالةَ، ليتحَّققَ النَّصرُ المنشودُ فى أكتوبر عام ١٩٧٣م.

* * *

رحلتْ «أم كلثوم» فى الثَّالث من فبراير عام ١٩٧٥م. بعد أن غيَّرتْ شكلَ الأغنيةِ العربيَّةِ وارتقتْ بمكانةِ الفن والفنانين، ونجحتْ فيما تعثَّرتْ فيه السِّياسةُ، فاجتمعتْ تحتَ رايةِ فنِّها الشعوبُ العربيَّةُ.

رحلتْ ولكن صوتَها ما زال يغرِّدُ بيننا، ويغمرُ قلوبنَا وأرواحَنا بالْجمالِ.